محمد أبو الغار.. عقل ليبرالي متجدد

د. محمد أبو الغار

نبيل عبد الفتاح

بقلم : نبيل عبد الفتاح
كاتب ومفكر مصري

أين العقل الليبرالي النقدي في ثقافتنا، وحياتنا السياسية في العالم العربي ؟

هذا السؤال مرجعه غياب ملكة النقد والتفكيك والتحليل والهدم والتركيب التي ميزت الفكر الليبرالي، في النهضة العربية – وفق الوصف الشائع وغير الدقيق – ، وخاصة في المرحلة الكولونيالية، التي اشتغل فيها العقل العربي وكبار المفكرين، بالحركة الوطنية الدستورية الساعية للاستقلال عن المستعمر الأجنبي، وفي الوقت ذاته بالمسألة الدستورية، والحريات العامة، والشخصية للأمة المصرية إزاء الحكم الملكي المطلق، وضرورة تقييد سلطات الملك، على نحو أدى إلى صياغة دستور 1923 الذي جاء محملاً بالنصوص الداعمة لحريات الرأي والفكر والتعبير، والحق المطلق في الاعتقاد.

جاء الفكر الحرياتي – الليبرالي – من معطف النخبة القانونية المصرية – ، وأبناء البعثات الأجنبية لأوروبا – التي لعبت دوراً محورياً، في قيادة الانتفاضة الجماهيرية العظمي عام 1919، وساهمت في تشكيل غالب الطبقة السياسية الحاكمة، وبعض من فئة الأفندية وخريجي كلية الحقوق. كان هاجس الحرية، وإقرارها وشرعنتها دستورياً، وقانونياً، وحمايتها من خلال الفضاء المستقل، من أبرز هواجس الجماعة القانونية بمكوناتها – من المحامين، والقضاة، والمشرعين وفقهاء القانون– ، ومن هنا كانت الحركة القومية الدستورية سمت أساس لشبه الليبرالية المصرية.

من ناحية أخرى ارتبط المشروع شبه الليبرالي بالانفتاح في البيئة السياسية والقانونية والثقافية، على أوروبا، ومراكز الإنتاج الفكري، في العلوم الاجتماعية، والآداب، والفنون، والموسيقي، وأيضاً من خلال البعثات الأجنبية في هذا المجال، وأيضاً في العلوم الطبيعية، والتقنية.

هذا الانفتاح أدي إلى الجدل الخلاق، والتفاعلات الثقافية، وتشكل العقل النقدي لدى القلة من المفكرين والكتاب. لا شك أن نظام يوليو 1952، وإغلاق المجال العام، والنزعة الأداتية في النظر إلى الدستور والقانون وأدواره الوظيفية التسلطية أعاق بنيويا تطور التشريع والحريات والنخبة القانونية ، مع ظهور النخبة التكنقراطية وتكريس البيروقراطية الكسولة والفاسدة، انكسر العقل الليبرالي المصري مع ظاهرة موت السياسة، وتراجع البعثات الأجنبية إلى أوروبا، والولايات المتحدة، أدى إلى تراجع حيوية الليبرالية المصرية، على الرغم من أن المرحلة الناصرية استمدت بعضاً من حيويتها، وكوادر الدولة البيروقراطية من فوائض الثقافة والنخبة شبه الليبرالية. رغم مرور أكثر من خمسين عاما على وفاة ناصر، ورغما عن بعض من حرية الرأي المقيدة في نهايات عصر مبارك، ثم 25 يناير 2011، إلا أن ذلك لم يؤدي إلى إنتاج عقل ليبرالي جديد وخلاق، يتابع ما يحدث من تحولاتها المجتمع، والثقافة الليبرالية الغربية، وغيرها. ثمة قلة قليلة، يمكن القول إنها، تمثل العقل الليبرالي العام – في ظل خفوت أصوات العقل اليساري كنتاج للقمع السلطوي، وانهيار الإمبراطورية الفلسفية الماركسية، وتجددها المحدود – ، من أبرز هذه الأسماء الأستاذ الدكتور محمد أبو الغار القادم من عائلة تنتمي إلى الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة، ودخل كلية الطب وتخرج منها 1965، والدكتوراه عام 1969، وتابع تكوينه العلمي في الدانمارك، والسويد، والولايات المتحدة، في تخصص هام، وهو أمراض النساء، وأول من أدخل التخصيب في الأنابيب في مصر، من ثم نحن إزاء طبيب نابه، وذائع الصيت في تخصصه مصريا، وعربيا، ودوليا.

ليبرالية محمد أبو الغار، ناتجة عن الوسط الاجتماعي الأسري، وأيضا تشكل وعيه النقدي، ومقارناته بين التجربة الليبرالية المصرية، وبين تجربة نظام يوليو التسلطية، وخاصة ظاهرة موت السياسة، وقمع العقل الحر، وساهم في تشكيل انحيازاته الليبرالية مع الحقوق الاجتماعية للمواطنين، لنظرته النقدية للأوضاع الاجتماعية للأغلبية المعسورة في بلادنا.

يبدو أيضا أن انفتاح عقل أبو الغار على التعدد السياسي، والديني، والثقافي، في تجربة المدينة الكوزموبولتيانية حول القاهرة والإسكندرية أساسية في تكوين وعيه الليبرالي، بالإضافة إلى بعض من خبراته في الشمال الأوروبي، والولايات المتحدة، وأنماط الحياة المفتوحة داخلها في إطار نظم ديمقراطية ليبرالية. محمد أبو الغار عقل ليبرالي مولع بالتاريخ المصري، خاصة في المرحلة الليبرالية حول 1919، وما بعد من هنا اهتمامه بدرس الوجود اليهودي ضمن التركيبة التعددية المصرية الدينية، والاجتماعية والثقافية، ودورهم الاقتصادي، والاجتماعي، كجزء من الدينامية السوسيو–ثقافية في المجتمع المصري خاصة في كتابه «يهود مصر في القرن العشرين» كيف عاشوا ولماذا أخرجوا؟. تناول أيضا في كتاب أمريكا وثورة 1919 سراب وعد ويلسون.

لا شك أن أبو الغار، حاول أن يعيد النظر فيما حدث في «ثورة» 1919 الوطنية التى تعمد عبرها النظام شبه الليبرالي، والفكر «الليبرالي المصري»، بالنظر إلى سطوة المقاربة التاريخية لمؤرخي المرحلة الناصرية، التي ابتسرت هذه التجربة السياسية والثقافية المركزية في التاريخ المصري الحديث، وبعض من تشويه صورة بعض زعاماتها التاريخية، لاسيما مصطفى النحاس باشا وحزب الوفد. من ثم يمتلك بعض من النقد لنظام يوليو 1952 .التكوين العلمي لأبو الغار أعطاه القدرة على تشريح المجتمع المصري، والسياسة، من خلال مشرط الجراح القدير في كتاباته المختلفة بالصحف السيارة والكتب، من خلال التقاط بعض الجروح، والأمراض الاجتماعية والثقافية والسياسية التي تشكل الباثولوجيا المصرية المركبة بالاختلالات التعليمية، وفي البحث العلمي والجامعي، والقيود المفروضة عليه، ومن ثم كان من مؤسسي جماعة 9 مارس حول الحريات الجامعية مع د. عبد الجليل مصطفي الطبيب البارز والمثقف الكبير.

يبدو مدخل أبو الغار وشغله الشاغل العقل الحر، ودوره النقدي، ومن ثم هو قرين الحريات العامة والشخصية. من هنا مشاركته المهمة في الحراك السياسي والثقافي في عصر مبارك، وما بعد 25 يناير 2011، وتأسيسه للحزب الديمقراطي الاجتماعي، ثم ابتعد عن العمل السياسي المباشر، إلى النشاط الفعال في المجال الثقافي، والكتابة للمقالات والكتب، التي تشهد له بالقدرة على التقاط الاختلالات التي تسم الحالة المصرية، في ظواهرها الكبرى، أو الجزئية التي تشير إلى خطورتها، وتمددها في النسيج الاجتماعي، وفي العمل السياسي. تتسم كتابات محمد أبو الغار بالتنوع، نظرا لتعدد اهتماماته كمثقف مصري بارز، وقدير كما يبرز في عديد مؤلفاته، من مثيل كتابه سنوات حرجة في تاريخ مصر «الوباء الذي قتل 180 ألف مصري» .محمد أبو الغار يمتلك ايضا ذائقة فنية رفيعة، في الفن التشكيلي، من ثم دائم الحضور، والمشاهدة للمعارض الفنية في مصر، وغيرها، ومتاحف الدول التي يزورها في دأب وشغف، لأنه من كبار مقتني اللوحات في مصر، ولديه مجموعات مهمة لكبار الفنانين التشكيليين، وأصدر كتابا مصوراً مهماً هو «رحلتنا مع الفن». لا شك أن الذائقة التشكيلية، هي تعبير عن ثقافة الصورة، واللوحة، والنحت، التي تعكس ثقافة العين المدربة، والذكية في تحليل اللوحة، والتماثيل والمنحوتات، وربما يعود ذلك إلى هذا المزج الخلاق، بين ثقافته الطبية، وملكة التشريح للجسد الإنساني، وبين عالم الفن التشكيلي، ومدارسه، ورواده، مع الرؤيا البصيرة بعوالمه الجميلة، وإبداعاته غير المألوفة.

هذا التداخل بين الطب، والمعرفة، والفنون في تكوين هذا الليبرالي المتطور الذي يتابع بدأب تحولات دنيانا في السياسة، والعلوم، والطب، هي ما جعلته يرتاد عالم التخصيب في الأنبوب في مصر، وأول من أدخله في حياتنا الطبية. كتاباته تتميز بالرشاقة والأسلوب السلس المشوق، دونما لغو، ويصيب هدفه مباشرة، من خلال نظرة الطبيب، ومشرط الجراح لأمراض حياتنا الاجتماعية بهدف، تجديد الدولة والمجتمع والثقافة المصرية. هذا الليبرالي الحصيف الصناع، يرمي إلى إصلاح أحوال بلده، ومن ثم نقده موضوعي، لا يغالي في اصطياد الأخطاء، أو تجسيم الأمراض الاجتماعية، ومن ثم يعتصم بالرصانة في كتاباته. على الصعيد الإنساني، أنت أمام إنسان جميل الروح، وصفاء العقل الوثاب، لطيف المعشر، في إنسانية ودودة، وأناقة في لغة الحديث والحوار دون لغو. مثقف ليبرالي مفتوح على الاختلاف، وعلى التعدد في الآراء، والأفكار، وذو نزعة اجتماعية عدالية في إطار ليبراليته الصارمة. مثقف مصري ليبرالي متجدد، حضوره مهم وفاعل وخلاق في حياتنا الثقافية والاجتماعية، بلا نزاع.

كيف ستؤثر أزمة أوكرانيا على سياسة الشرق الأوسط ؟

رؤية شارك فيها : آنا بورشفسكايا, سونر چاغاپتاي, غرانت روملي

يناقش ثلاثة خبراء ما إذا كانت الحرب في أوكرانيا قد تغيّر حسابات واشنطن بشأن التقارب مع تركيا، والانتشار العسكري في المنطقة، والتنافس الأوسع نطاقاً بين القوى العظمى.

«في 3 مارس، عقد معهد واشنطن منتدى سياسي افتراضي مع آنا بورشيفسكايا، سونر چاغاپتاي، وجرانت روملي. وبورشيفسكايا هي زميلة أقدم في «برنامج مؤسسة دايين وغيلفورد غليزر» التابع للمعهد حول «منافسة القوى العظمى والشرق الأوسط». وچاغاپتاي هو زميل «باير فاميلي» ومدير «برنامج الأبحاث التركي» في المعهد. وروملي هو زميل أقدم في «برنامج مؤسسة غليزر» ومستشار سابق لسياسة الشرق الأوسط في البنتاغون. وفيما يلي ملخص المقرر لملاحظاتهم».

آنا بورشيفسكايا

يبدو أن هدف الرئيس الروسي فلاديمير بوتين من غزو أوكرانيا هو خوض الحرب الباردة، ولكن مع رسم نهاية مختلفة لها هذه المرة. ورغم الفرحة السائدة بشأن القدرة التي أظهرتها أوكرانيا على التصدي للهجوم الروسي، إلا أن الغزو سيستمر وقد تتحول كييف إلى حلب ثانية.

وتشير ردود فعل دول الشرق الأوسط إزاء الحرب، حتى الآن، إلى أن بوتين قد نجح في بناء علاقات جيدة ونفوذ براغماتي في المنطقة. فالنظامان الإيراني والسوري ووكلاؤهما يدعمون الغزو الروسي في حين تتردد حكومات أخرى في الانحياز إلى أحد طرفيْ النزاع. على سبيل المثال، لا يستطيع الرئيس التركي رجب طيب أردوغان تنفير الرئيس الروسي، بينما تسير إسرائيل على خط دقيق. ومع ذلك، بغض النظر عن مدى المرونة التي سعى بوتين إلى أن يكون عليها، تبقى شراكاته الأقرب مع الجهات الفاعلة المناهضة لأمريكا.

وفيما يتعلق بالتأثيرات المحتملة للحرب على الشرق الأوسط بحد ذاته، هناك عامل أساسي واحد يلعب دوره وهو ارتباط أوكرانيا بالبحر الأسود وبحر آزوف. فموسكو تعتبر هذيْن البحريْن وشرق البحر المتوسط خطاً دفاعياً ثلاثي الجهات يحمي نقطة ضعف روسيا من جهة الجنوب، وبالتالي قد تؤثر نتيجة الحرب على الموقف المستقبلي لبوتين تجاه الدول المختلفة على طول هذه المياه وبالقرب منها. وقد تُعرّض الأزمة أيضاً الأمن الغذائي للخطر، لا سيما في لبنان ومصر وإسرائيل. وقد يؤدي هذا بدوره إلى تدفق أعداد كبيرة من اللاجئين عبر المنطقة. وقد استخدم بوتين مثل هذه التدفقات كسلاح في الماضي ولن يتردد في فعل ذلك مجدداً. بالإضافة إلى ذلك، نظراً للعلاقات التجارية لروسيا مع دول الشرق الأوسط، فإن تدفق العقوبات الدولية ضدّ موسكو سيصيب المنطقة مالياً. وقد تأثرت أساساً أسعار الطاقة.

وعلى الرغم من أن بوتين تجنّب الوقوع في مأزق في سوريا، إلا أنه قد لا يتمكن من النجاح بذلك في أوكرانيا. وسيستغل نفوذه الاستراتيجي في الشرق الوسط لمواصلة القتال، ولكن مثلما أكسبه نجاحه العسكري في سوريا الاحترام في جميع أنحاء المنطقة، فإن عدم نجاحه في النهاية في أوكرانيا يمكن أن يهدد مكانته. ومع ذلك، لا ينبغي للمجتمع الدولي انتظار حدوث ذلك. وقد اتبع بوتين نهج يقوم على إشراك كافة الجهات الحكومية للضغط على الغرب، لذلك على الغرب أن يفعل الشيء نفسه لتحديه.

ومن خلال القيام بذلك، على واشنطن أن لا تقلل من شأن قدرة روسيا ورغبتها في اختبار القوات الأمريكية. واستناداً إلى ما ستكشفه فصول الصراع الأوكراني، قد تعتمد القوات الروسية على مثل هذه الاختبارات في سوريا، كما فعلت في الماضي.

وعموماً، يشوب نظرة قادة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا إلى الولايات المتحدة قدر كبير من عدم اليقين في الوقت الحالي، ويعمد الكثيرون إلى تنويع سياساتهم الخارجية لأنهم لا يعتقدون أنهم قادرون على الاعتماد على واشنطن. على سبيل المثال، أثّر هذا التصور على دولة الإمارات خلال المداولات الأولية للأمم المتحدة حول كيفية الرد على الغزو. لذلك يجب على المسؤولين النظر بإمعان في النفوذ الأمريكي، وتقييم ما نجح وما يمكن القيام به بشكل مختلف. وعلى الرغم من أن واشنطن لم تمنع الغزو، إلا أنها اتخذت الخطوة الفعالة التي تمثلت في الكشف عن معلومات حول خطط روسيا لخلق عملية خفية سرية كاذبة. وهذا ما ترك بوتين دون أي عذر مصطنع حتى للغزو، وقوّض مصداقيته وسرديته.

سونر چاغاپتاي

يمكن وصف سياسة تركيا تجاه الحرب بأنها «الحياد المؤيد لأوكرانيا». وتوفر الأزمة فرصة استراتيجية لأنقرة في المرحلة القادمة لتحسين علاقاتها مع واشنطن.

وبالنسبة للرئيس التركي أردوغان، فكان قد بنى رابطاً مشتركاً مع بوتين منذ تواصل الأخير معه عقب محاولة الانقلاب عام 2016، لكن البلدين ليسا حليفين. وعلى وجه الخصوص، لا يزالان متنافسين على البحر الأسود، حيث تم التركيز مؤخراً على «اتفاقية مونترو» لعام 1936 التي تنظم الوصول البحري. وبموجب شروطها، يمكن للدول الساحلية فقط الاحتفاظ بقوات بحرية كبيرة ودائمة على البحر الأسود، وتركيا هي «الحارس المعّين» لتحديد السفن التي يمكن أن تبحر عبر المضائق الغربية أثناء الحرب. ومع ذلك، هناك بعض الغموض حول هذه الجوانب القانونية، ولا تزال روسيا القوة العسكرية المتفوقة.

وبالتالي، تَعتبر أنقرة أوكرانيا حليفاً رئيسياً في إقامة قوة موازنة في وجه موسكو وستبذل جهدها لمنع سقوط كييف في قبضة بوتين. وفي الوقت نفسه، لا يمكن لأردوغان أن يتحمل تكلفة تنفير روسيا إلى حدّ كبير لأن الكرملين يمكنه فعل الكثير لتهديد احتمالات إعادة انتخابه في 2023. على سبيل المثال، إذا استمرت الحرب وأدت المساعدة التركية إلى قلب ميزان القوى لصالح كييف، فبإمكان بوتين القيام بعمل عسكري في سوريا يؤدي إلى تدفق اللاجئين نحو تركيا، و / أو تنفيذ عقوبات تجارية وسياحية تقوّض انتعاشها الاقتصادي. حتى أنه قد يبدأ اشتباكات مباشرة مع القوات التركية أو وكلائها في سوريا.

ومن الناحية العملية، يعني ذلك أن أنقرة ستدعم أوكرانيا دبلوماسياً ومادياً، لكن دون انضمامها إلى العقوبات الاقتصادية ضد روسيا. كما ستنفذ «اتفاقية مونترو» بطريقة «محايدة» بل مفيدة في الغالب، خاصة إذا استمرت الحرب.

ونظراً لأن الحرب أضافت جرعة من الروح الواقعية إلى وجهات نظر تركيا بشأن روسيا، فقد حان الوقت لقيام واشنطن بإشراك أنقرة في محادثات إستراتيجية أعمق – وبشكل مثالي بصورة غير علنية. يجب أن تركز هذه المداولات على التوصل إلى صفقة كبرى تشمل العناصر التالية: زيادة التعاون الثنائي بشأن أوكرانيا؛ إلغاء صفقة صواريخ «إس 400–» التركية مع موسكو؛ إعادة النظر في سياسة الولايات المتحدة تجاه القوات الكردية في سوريا؛ إعادة دعوة تركيا إلى مشروع طائرات «F–35»؛ السعي للحصول على موافقة الكونغرس الأمريكي على مبيعات طائرات «F–16» لأنقرة؛ وصياغة اتفاقيات صارمة تتمثل بعدم السماح لروسيا بمضايقة القوات التركية والوكلاء الأتراك في سوريا.

غرانت روملي

على المدى القريب، من غير المرجح أن يتأثر الموقف العسكري الأمريكي في الشرق الأوسط بصورة مباشرة بالأزمة الأوكرانية. فمعظم القوات التي كان قد تمّ تغيير مواقعها لدعم الحلفاء في «الناتو» متمركزة أساساً في أوروبا، باستثناء عناصر الفرقة 82 المحمولة جواً. ومع ذلك، فإن استمرار الصراع لمدة طويلة يمكن أن يقيّد بعض الجهود العسكرية الأمريكية المهمة الطويلة الأمد في المنطقة.

ومن الأمثلة على ذلك البعثات الأمريكية التي تركز على طمأنة الحلفاء. وقد يؤدي القتال طويل الأمد في أوروبا إلى سحب بعض هذه الأصول التي يكثر الطلب عليها من مناطق مثل الخليج العربي لدعم حلفاء «الناتو» بشكل أفضل.

وعلى نطاق أوسع، تشكّل الحرب لحظة توفّر الوضوح للولايات المتحدة وشركائها. فإسرائيل قلقة للغاية من زعزعة استقرار علاقاتها مع روسيا بشأن سوريا. ويشعر الأردن بالقلق حيال الأمن على حدوده، خاصة فيما يتعلق بتهريب المخدرات. وتكترث الإمارات والسعودية لعلاقاتهما الوثيقة وطويلة الأمد مع روسيا، لا سيما في قطاع النفط باعتبارهما أعضاء في كارتل «أوبك بلس». ومن ناحية أخرى، ينظر العديد من الشركاء إلى الولايات المتحدة على أنها قوة آخذة في الانسحاب [من الشرق الأوسط] وأن روسيا والصين هما ملاذاً آمناً في وجه هذا الواقع. وبالتالي، على واشنطن تعزيز موجة الدعم الدولي التي أطلقتها لأوكرانيا، ليتم مقارنة الحشد السريع للغرب للمساعدات العسكرية والعقوبات الاقتصادية مع إجراءات اتخذتها (أو تقاعست عن اتخاذها) قوى عظمى منافسة أخرى في المنطقة وخارجها.

عن «معهد واشنطن لدراسة الشرق الأدنى»